# الباب الثاني

## معالم الاستدلال العقدي عند ابن تيمية

# الفصل الأول

## الحمل على مراد المتكلّم

# تمهيد

إن الفهم السليم للكلام لا يُقاس بمجرد عقل ألفاظه وتراكيبه؛ بل إن ذلك يكون بالإدراك السليم لمراد المتكلم من كلامه، وما لم يُحسن المخاطَب إدراك مراد المتكلم فلن يستطيع فهم خطابه؛ لأن مدلول اللفظ تابع لقصد المتكلم وإرادته.

ومن هنا كان الأخذ بمراد المتكلم وحمل الكلام عليه واجبًا، وقد كان اهتمام ابن تيمية بهذه القضية بارزًا؛ لعظيم أثرها في فهم الكلام، كما أنه كان معنيًّا بالرد على الطوائف التي أغفلت اعتبار هذا الأصل في التعامل مع نصوص الشريعة، **والتي يمكن حصر المواقف التي تبنتها في اتجاهين:**

**الأول:** من يزعم أن المتكلم -وهو هنا اللّه ورسوله ﷺ - لم يبيّن مراده من كلامه، وهم أهل التجهيل (المفوضة).

**الثاني:** من ينسب للمتكلم غير ما أراد، وهم أهل التخييل من الفلاسفة، وأهل التأويل من سائر فرق أهل الأهواء.

## المبحث الأول

# البيان النبوي

لا يتم الاستدلال بنصوص الشريعة وتحصيل فهمها على الوجه المطلوب إلا حين تؤخذ نصوصها على هيئة نص واحد، وينظر فيها على وفق ما تقرر في قواعد الاستدلال، وبهذا يحصل البيان من اللّه ورسوله ﷺ.

ومن هنا كان حمل الآية القرآنية على نظائرها من الآيات من أبلغ الطرق التفسير، فإن المتكلم أدرى بكلامه، ومن أبلغ طرق التفسير القرآن حمله على البيان النبوي، فرسولنا الكريم ﷺ هو المفسر الأول للقرآن، وهو المرجع المقدم فيه؛ دل على ذلك النص والإجماع، ومما قرره ابن تيمية في هذا الصدد أن الرسول ﷺ بلغ معاني القرآن كما بلغ ألفاظه، وكثيرًا ما يؤكد هذا المعنى، **ولعل السبب في ذلك:**

ما رآه من إعراض أهل البدع عن هذا الأصل، والركون إلى مصادر أخرى يفسرون بها القرآن، وهم وإن زعموا أنهم يفسرون القرآن بمقتضى دلالة اللغة ونحو ذلك؛ إلا أنهم في الحقيقة يفسرونه بما يوافق ما اعتقدوه مسبقًا، بل إن الرجوع إلى اللغة مع توفر التفسير النبوي لا ينبغي أن يُطلق فيه الأمر.

الرد على المفوضة الذين زعموا أن نصوص الصفات غير معلومة المعنى، وأن الصحابة كانوا غير عارفين بمعاني تلك النصوص؛ وذلك أن إثبات البيان النبوي لهذه النصوص يجتث هذه البدعة من أصلها.

أن التفسير النبوي يدل على أن القرآن كله معلوم المعنى، وفي هذا رد على من زعم أن نصوص الصفات ونحوها من المتشابه الذي استأثر اللّه بعلمه.

إثبات علم السلف بمعاني نصوص القرآن كله، ومنها نصوص الصفات؛ فإن السلف هم نقلة التفسير النبوي.

الرد على من لا يأخذ بالسنة المبيِّنة لحكم ما سكت عنه القرآن كالخوارج وغيرهم.

أنه لا يوجد في تفسير القرآن ما أخفاه الرسول ﷺ عن بعض الصحابة وعلمه بعضهم عن قصد.

# المطلب الأول

## المراد بالبيان النبوي

**أصـل البيـان:** الكشـف والظهـور. **والبيـان:** إظهـار المعنـى وإيضـاحه للمخاطَب.

والقرآن منه ما هو بيّن في نفسه؛ فهذا لا يحتاج إلى إيضاح وإظهـار؛ كمـا في لفظ السماء والأرض ... ومن القرآن مـا يحتـاج إلى بيـان، وهـذا ممـا اضطلع الرسول ﷺ ببيانه، فالرسول ﷺ بيّن معاني القرآن كما بيّن ألفاظـه، بل بيانه لمعاني القرآن كان أبلغ من ألفاظه.

**ومراد ابن تيمية بالبيان النبوي للقرآن هـو:** كـل قـول أو فعـل أو تقريـر صدر من النبي ﷺ يمكن أن يستفاد منه في فهم القرآن.

**وما يزيد من فهم رأي ابن تيمية في هذه المسألة اعتبار ما قرره فيما يلي:**

أن التفسير النبوي لا يعني أن النبي ﷺ قد فسر كل لفظ وتركيب في القرآن، بل إن ابن تيمية انتقد هذا المسلك؛ إذ البيان إنما يكون على الوجه الذي يحصل به كشف المعنى الذي يحتاج إلى بيان.

أن البيان النبوي لا يشمل الكلام في المسائل النحوية والصرفية والبلاغية، وكذا تعليل الأحكام؛ لأن معرفة المراد بالنص الشرعي غير موقوف على ذلك.

أن البيان النبوي لا يشمل ما لا يُحتاج إلى معرفته كلون كلب أصحاب الكهف .. فهذا مما لا يُفيد، وإن كان النقل قد يأتي ببعض ذلك، وأما ما كانت فيه فائدة، وللمسلمين به حاجة؛ فإن اللّه نصب على معرفة الحق فيه دليلاً.

أن تلقي الصحابة للبيان النبوي وفهم ما جاء به النبي ﷺ ليس على درجة واحدة، فبعضهم أعلى من بعض، فهم في ذلك على درجات.

أن البيان قد يحصل على جهـة العمـوم دون التفصـيل،
إذا كان التفصيل لا أثر له في المعنى.

أن القول بالبيان النبوي للقرآن لا يمنع مـن الاسـتنباط؛
إذ الاستنباط متفرع عن المعنى الأصلي للنص القرآني.

**وبعد هذا قد يثار إشكال مفاده:** لو أن الرسول ﷺ قد علم الصحابة كل معاني القرآن؛ للزم من ذلك ألا يختلفوا، أما وإنهم قد اختلفوا فهذا دليل على عدم بيان الرسول ﷺ لكل القرآن.

## وقد أجاب ابن تيمية عن ذلك بعدة أجوبة، وهي تعود إلى المعاني الآتية:

- أن سبب الخلاف لا يُشترط أن يكون في عدم البيان النبوي، بل قد يكون لأسباب أخرى كخفاء الدليل، أو الذهول عنه، وغير ذلك.
- أن غالب اختلافهم تنوع لا تضاد، والخلاف الحقيقي أو المعنوي الذي وقع بين الصحابة في التفسير قليل جدًّا، والحق لا يخرج عما اختلفوا فيه؛ وإلا للزم منه غياب الحق عن الأمة في عصر من العصور، بل وهو أشرف العصور.
- أن وقوع الخلاف في بعض المسائل القليلة لا يعني إلغاء الحكم عن الأعم الأغلب.

# المطلب الثاني

## ألفاظ القرآن بالنسبة للصحابة، وكيفية انتقال معانيها

## كانـت ألفـاظ القـرآن بالنسـبة للصحابة حينما خاطبهم النبـي ﷺ بالقرآن على نوعين:

١ مـا لا يمكـن أن يُـدرك إلا ببيـان مـن النبـي ﷺ، وهـذا كالأسماء الشرعية كالإيمان وغيرها.

٢

ما يعرفه الصحابة بمقتضى لغتهم كالأرض والسماء ونحوها، أو بمقتضى عرفهم كاسم البيع والنكاح ونحوها، فهذا وإن كان الرسول ﷺ لم يشرحه ويفسره بلفظه، إلا أنه حينما قرأ عليهم القرآن علم أنهم لم يفهموا من هذه الألفاظ إلا المعاني المتقررة في لغتهم أو عرفهم، فهذا إقرار من النبي ﷺ لما فهمه الصحابة، وهو بمثابة البيان النبوي.

**والمراد هنا مجمل الصحابة،** وليس كل فرد من أفرادهم؛ إذ قد يفهم بعضهم بعض النصوص خطأ، ولكننا نقطع بأن من الصحابة من فهم النص على وجهه، وهذا من أسباب وقوع الخلاف بينهم وإن كان قليلاً.

وقد استخدم ابن تيمية هذا المسلك في الرد على التـأويلات البعيـدة، كالتأويلات الباطنية التي حملت ألفاظ القرآن الظاهرة على غير محملها المعروف في اللغة، كما في لفظ الشمس والقمر وغيرها، **فـابن تيميـة حينما رد هذه التأويلات ردّها من جهتين: من جهة** أنهـا غيـر معلومـة للعرب، ولا يدل عليها سياق الكـلام، **ومـن جهـة أخـرى:** أنهـا مخالفـة لإقرار النبي ﷺ لهذه المعاني على وفق المعهود في لسان العرب الـذي نزل عليهم القرآن.

## ويرد على هذا التقرير سؤال وهو: إذا كان نقل معاني القرآن كنقل ألفاظه، فهل كل معاني القرآن متواترة كألفاظه؟

**يقرر ابن تيمية** أن المتواتر من معاني القرآن هو ما اتفق عليه منها؛ فكل معنى من معاني القرآن اتفق المسلمون عليه فهو مما تواتر عندهم عن نبيهم، ويدخل في هذا التواتر: المعاني الظاهرة المعلومة باللغة كالشمس والقمر، ويدخل فيه أيضًا: معاني نصوص الاعتقاد، فإنها مما اتفق على معناه الصحابة، وإن وقع الخلاف ففي نصوص قليلة جدًّا، والحق لا يخرج عما اختلفوا فيه.

**بل إن ابن القيم** قرر أن غالب معاني القرآن والحديث مما أجمع عليه الصحابة والسلف، وعلى هذا تكون غالب معاني القرآن والسنة منقولة إلينا نقلًا متواترًا.

# المطلب الثالث

## أدلة ابن تيمية على ما قرره في مسألة البيان النبوي

## الدليل الأول:

قول اللّه تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل: ٤٤] **والمراد بالبيان هنا:** بيان التلاوة -أي: الألفاظ- وبيان المعاني؛ بإيضاح المجمل منها، والمشكل ونحو ذلك، ويكون أيضًا بتأكيد هذه المعاني وتقريرها لترسخ في النفوس.

## الدليل الثاني:

عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: (إنا أخذنا القرآن عن قوم، فأخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن من العلم، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا)، وهذا فيه دلالة على أن النبي ﷺ كان إذا علم الصحابة القرآن علمهم ما فيه من العلم والعمل.

## الدليل الثالث:

بقاء الصحابة مدة في حفظ السورة، قال أنس رضي اللّه عنه: (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا)، والمكث بهذه المدة الطويلة لا يكون لمجرد الحفظ، بل للتفقه في المعاني.

## الدليل الرابع:

أمر اللّه بتدبر كلامه كما في قوله تعالى: (كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) [ص: ٢٩]، والتدبر لا يكون إلا بعد فهم المعنى.

## الدليل الخامس:

أن اللّه أخبر عن كتابه بأنه بيان للناس فقال تعالى: (هَـذا بَيَانٌ لّلنَّاس) [آل عمران: ١٣٨]؛ فلو خاطبهم بلفظ لم يفهموا معناه لم يكن ذلك بيانًا.

## الدليل السادس:

قوله تعالى: (إِنَّا أنزَلْنَاهُ قرْآنًا عَرَبِيًّا لعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ) [يوسف: ٢]، وقوله: (فإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بلسَانِكَ لَعَلّهُمْ يَتَذكّرُونَ) [الدخان: ٥٨] فبيّن سبحانه الغاية من إنزال القرآن، وهي أن يعقلوه ويتذكروا بما فيه، والعقل والتذكر لا يكون إلا مع العلم بمعانيه.

## الدليل السابع:

أن اللّه ذمّ من لا يفقه كلامه، كما في قوله تعالى: (فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقهُونَ حَدِيثًا) [النساء: ٧٨]، وذمّ أيضًا من لا يعلمون الكتاب إلا أماني، أي: تلاوة بلا فهم للمعنى، فقال تعالى: (وَمِنْهُمْ أمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ) [البقرة: ٧٨]، وكذا ذمّ من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، كما في قوله تعالى: (أمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأنعَام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً) [الفرقان: ٤٤]، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضًا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم اللّه تعالى به.

## الدليل الثامن:

أن اللّه قد أمر نبيه ﷺ بالبلاغ، وأخبر عن تمام دينه وكماله، فقال تعالى: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [العنكبوت: ١٨]، وقال سبحانه: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا) [المائدة: ٣].

## الدليل التاسع:

أن المقصود عادة من أي كلام فهم معانيه، لا الاكتفاء بمجرد الألفاظ، والقرآن أولى بذلك.

## الدليل العاشر:

أن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من الفنون كالطب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام اللّه الذي به نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟!.

## الدليل الحادي عشر:

قلة النزاع بين الصحابة في معاني القرآن؛ مما يدل على علمهم بمعانيه، بل النقول المتواترة عن ابن عباس رضي اللّه عنهما تشهد بأنه تكلم في جميع معاني القرآن.

## الدليل الثاني عشر:

أن من التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، قال مجاهد: (عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها).

## الدليل الثالث عشر:

قول جندب بن عبد اللّه رضي اللّه عنه: (كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا)، فهذا دليل على أن النبي ﷺ كان يعلم الصحابة معاني القرآن، وهو المراد هنا بالإيمان.

# المطلب الرابع

## أوجه البيان النبوي

للبيان النبوي للقرآن الكريم أوجه عديدة، ويمكن تصنيف هذه الأوجه إلى عدة اعتبارات:

## الوجه الأول: من حيث مصدره

١ **بيان بالقول،** ومثاله: ما جاء عنه ﷺ في تفسير قوله تعالى: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٧]، فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: (إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى).

٢ **بيان بالفعل،** ومثاله: ما رواه أبو هريرة رضي اللّه عنه عند قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إِلَى أهْلِهَا وَإِذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء: ٥٨]، قال (رأيت رسول اللّه ﷺ يضع إبهامه على أذنه وأصبعه التي تليها على عينه)، وهذا بيان بالإشارة، والإشارة داخلة في الفعل، فهو بيان فعلي من النبي ﷺ.

٣ **بيان بالإقرار،** ومثاله: ما رواه عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: (جاء حبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد -أو يا أبا القاسم-: إن اللّه تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول اللّه ﷺ تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر: ٦٧].

## الوجه الثاني: من حيث كونه مباشرًا أو غير مباشر

١ **البيان النبـوي المباشـر،** والمـراد بـه: أن يكـون النبـي ﷺ قاصـدًا تفسير الآية، ومثاله: ما رواه عبد اللّه بن مسعود رضـي اللّـه عنـه قال: لما نزلت: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْـم) [الأنعـام: ٨٢] شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول اللّه، أينا لا يظلـم نفسه؟ قال ﷺ: (ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قـال لقمان لابنه وهو يعظه: (يَا بُنَيَّ لا تُشْـرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْـمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: ١٣]).

٢ **البيان النبوي غير المباشر،** مثاله: ما رواه جابر بن سمرة رضي اللّه عنه قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: (ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة) قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقًا فقال: (ما لي أراكم عزين؟) قال: ثم خرج علينا فقال: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟) فقلنا: يا رسول اللّه، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: (يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف)، وهذا يفسر لفظ (عزين) في قوله تعالى: (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) [المعارج: ٣٧]، فالنبي ﷺ هنا لم يظهر منه قصد التفسير كما يبدو، ومع ذلك فكلامه هنا من أولى ما ينبغي أن يفسر به كلام اللّه.

## الوجه الثالث: من حيث تعدد النصوص الواردة عن النبي ﷺ

١ أن يؤخذ التفسير النبوي من نص نبوي واحد، وهذا كما سبق في الأمثلة السابقة.

٢ أن يؤخـذ التفسـير النبـوي مـن مجمـوع النصـوص الـواردة فـي الباب، وهذا كما في الأسماء الشرعية كالصلاة وغير ذلـك، فمـن ذلك: ما ورد عنه ﷺ من تفسير الإيمان الوارد في نصوص القرآن، كمـا فـي حـديث وفـد عبـد القـيس، وفيـه أن النبـي ﷺ قـال: (أتدرون ما الإيمان باللّه وحده؟) قالوا: اللّه ورسـوله أعلـم، قـال: (شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه، وإقـام الصـلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا مـن المغـنم الخمـس)، ففسر الإيمان بالعمل الظاهر مما يـدل عـلى دخـول العمـل فـي مسمى الإيمان، وكذا فسر ﷺ الإيمان في حـديث جبريـل الطويـل بالعمل الباطن.